الفراسة كوسيلة للاستدلال على الشخصية في مجتمع وادي سوف

-تتبع الأثر والقيافة أنموذجين-

أ. الجباري عثماني
جامعة الوادي

الملخص:

تعتبر فِراسة القِيافة بنوعيها من الأمور التي برع فيها العرب واختصوا بها من بين الأمم، وصارت لهم معرفة وخبرة في شأنها، وقد ساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم الرملية، ووسائل مواصلاتهم وعيشهم محصورة في الإبل والأحصنة والأغنام، لذلك تمرسوا في تتبع الأثر على الرمال وتمرسوا أيضا في كيفية الاستدلال بهيئات أعضاء الأشخاص على المشاركة والاتحاد في النسب والولادة وسائر الأحوال. وقد حذِق هذه الصناعة نخبة من السوافة، واتخذ المجتمع من رأيهم حجة في الإثبات وعلامة للاستدلال، نحاول في هذه الورقة أن نُبين دور هؤلاء في الكشف عن ما تعذر على أفراد المجتمع الوصول إليه والتثبت منه.

Résumé:

On considère « le suivi de la trace et le signe sur le sable » parmi les choses que les arabes ont appris avec excellence. Cette connaissance et cette expérience n'est pas venue du rien, elle tend ses racines et son existence grâce à la nature sablonneuse de leur terre et aux moyens de transport de leur époque : les chameaux , les chevaux , et des animaux dont ils subsistent tel que les moutons et les chèvres. Desquels, ils ont appris le savoir du suivie de la trace sur le sable et la façon dont les membres des organes de personnes heuristiques connaissent le lignée humaine et l'ingéniosité de l'industrie élite de SOUAFA, ainsi que leur opinion, leur argument qui n'est qu'un signe de l'inférence. Nous essayons dans cet article de montrer leur rôle dans la divulgation de ce que les membres de la communauté ne pouvaient pas y accéder et vérifier.

مقدمة:

إن موضوع القيافة جدير بالدراسة والاهتمام فهي نوع من وسائل الإثبات كانت معروفة عند العرب قديما تَحْكم بها وتَعُدها من أشرف علومها، والقيافة دالة على عبقرية ابن الصحراء، وكما يقال بأن الحاجة هي أم الاختراع، فإن ظروف حياة العرب الاستثنائية على مر العصور في الصحاري والقفار كان لها الأثر البالغ في تلبية حاجيات تلك الظروف. ولهذا فعلم القيافة تشكل من خلال الإرث الثقافي التراكمي، وكان له خصوصيته المحلية حتى وصل إلى مصاف العلوم التي برع فيها العرب، فاعترفت به أدبياتهم المنقولة كعلم قائم بحد ذاته "البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير"، هكذا دخل قص الأثر ضمن مأثورات العرب القولية من خلال المثل والحكاية.

والتي نستطيع من خلالها أن ندرس حركة الفعل الاجتماعي واتجاهات تغيره في عصر من العصور، وأسلوب الحياة ومواجهة ما يُشكل على ذلك المجتمع، فكان قص الأثر وقوة الباصرة في الحاق النسب، مما لجأ إليه العرب منذ القدم لاستجلاء غموض أمرٍ ما. ونظرا لبيئة وطبيعة منطقة وادي سوف الرملية وأصول المجتمع العربية ساهم الأمر في بروز نوابغ حذِقوا فيما يُعرف "بالجرة"، و"لهداد" أي إلحاق الولد بأبيه والجمل بعرش مالكيه.

وسنعطي في هذه الدراسة نماذج تداولتها الأخبار، والروايات الشفهية، والكتابات التاريخية، والمنظومات الأدبية أبرزت فضل أهل هذا العلم في الكشف عن ما تعذر على الأفراد الوصول إليه، ولذا فالموضوع يطرح تساؤلات منها: ما جذور براعة وحِذاقة السوافة في هذا الميدان؟ وما هو دور القيافة في الإثبات وفض النزاعات في أوساط المجتمع السوفي؟ وسنحاول الإجابة عن ذلك من خلال النقاط الآتية.

أولا: تعريف القِيافة:

القِيافة لغة: مصدر مشتق من القفو، وقَافَ يَقُوفُ قِيَافَةً فَهُوَ قَائِفٌ، والجمع: الْقَافَةُ؛ وهي إتباع الأثر. والقائف: هو الذي يتتبع الآثار، ويتعرف منها على الذين سلكوها، ويعرف شبه الرجل بأبيه وأخيه، ويُلْحِق النسب عند الاشتباه لما خصه الله تعالى به من علم ذلك. ويقال: قاف الرجل أثَرَ الرجلِ: إذا تتبعه عن طريق آثاره[1]. ويقصد بها أيضا، التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه[2].

وفي اصطلاح الفقهاء: هو الذي يعرف الشبه، ويميز الأثر وسُمِي بذلك، لأنه يقفو الأشياء أي يتبعها، والقائف هو الذي يقفو الأثر ويقتافه قفوا وقيافة، ويجمع القائف على القافة. وَبذلك لا يخرج المَعنى الإصطِلاَحِي عَنِ المَعْنَى اللُّغوِيِّ. وهناك من يرى أن القيافة قياس صوري، لأن اعتماد القائف على المشابهة في الصورة[3].

ولهذا يمكن القول، بأن القيافة علما مستقلا قائما على الحدس والتخمين والممارسة، ولا يؤخذ هذا العلم بالمدارسة والتعلم.

والرجل الذي يمارس القِيافة (تتبع وقص الأثر)، يستطيع بمجرد النظر إلى الأثر في الأرض أن يصف صاحبه بكل وضوح، وأن يحدد جنسه وشكله وقبيلته، ويفرقون بين أثر قدم الشيخ والشاب، والبكر والثيب[4]، وفي أغلب الأحيان يكون قوله صحيحا، ويستفاد منهم في كشف المجرمين، واللصوص والفارين والشاردين والقوافل، ولا يخفى ما لهذه المعرفة من أثر في الصحراء[5].

وقد عَرَفها العرب منذ القدم وكانوا يعتمدون قول القائف ويعترفون بحقية القيافة، ويرى "المسعودي" أن القيافة من الأمور التي برع فيها العرب واختصوا بها، وصارت لهم معرفة وخبرة في شأنها. وقد ساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم الرملية، ووسائل مواصلاتهم وعيشهم محصورة في الإبل والأحصنة والأغنام، لذلك تمرسوا في تتبع الأثر على الرمال، ومعرفة بصمات الأقدام، وتمييزها عن بعضها، ولو تزاحمت وتراكمت[6].

ويعتبر ابن الكلبي أن القيافة خاصة بالعرب من بين الأمم، فيقول: " كانت في العرب خاصة عشر خصال لم تكن في أمة من الأمم، خمس منها في الرأس، وخمس في الجسد، فأما التي في الرأس: فالفرق[7] ، والسواك، والمضمضة، والاستنصار، وقص الشارب؛ وأما التي في الجسد: فتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء. ومارسوا الريافة، وهي معرفة استنباط الماء من الأرض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده، فيعرف بعده وقربه بشم التراب، أو برائحة بعض النباتات فيه. وكان في العرب خاصة، القيافة، لم يكن في جميع الأمم، أحد ينظر إلى رجلين أحدهما قصير والآخر طويل، أو أحدهما أسود والآخر أبيض، فيقول: هذا القصير ابن هذا الطويل، وهذا الأسود ابن هذا الأبيض، إلا في العرب[8] .

وقد أُلفت الكتب ونظمت الأبيات في شأنها، ومن هذه المؤلفات: "القيافة والفأل والزجر" لعلي بن الحسن المدائني، و"مرآة الرجال في القيافة" لعلي بن الحسن المسعودي، و"الحديقة في علم القيافة" لمحمد المشهدي، و"السبع السيار في بحث علوم القيافة والفراسة" لمحمد بن حسن الجنابي، ولمؤلف مجهول "اللطافة في علم القيافة"، وكما كتب الإمام الشافعي رسالة في شأن القيافة سماها، "التنقيح في علم القيافة"[9].

وظهرت بحوث حديثة عديدة عُنيت بالقيافة وأهميتها في إثبات النسب، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الدراسة التي قام بها الباحث المصري "أنور محمود أنور"، تحت عنوان: "إثبات النسب بطريق القيافة في الفقه الإسلامي"، وهناك بحث قيّم آخر عبارة عن رسالة ماجستير للمؤلف "عدنان حسن عزايرة" تناول فيها

حجية القيافة في ظل المكتشفات والمستجدات العلمية الحديثة، جاءت الدراسة بعنوان: "حجية القرائن في الشريعة الإسلامية(البصمات، القيافة، دلالة الأثر، تحليل الدم)، وغيرهم كثير..

ومن الألفاظ ذات الصلة بالقيافة، العِيافة، وهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور، أو ما يعرف بالطِّيرة، وقد كان العرب يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة، ولارتباط العيافة بالكهانة، فهي بهذا تختلف عن القيافة، التي لا تعَلُق لها بالكهانة، وتقوم على النظر المنطقي التجريبي حسبما يتضح من شروط العمل بها[10] . ومن الألفاظ ذات الصلة أيضا ما يسمى بـ "القرينة"، وهي مأخوذة من المقارنة، وهي المصاحبة، يقال: فلان قرين لفلان أي مصاحب له، وفي الاصطلاح: العلامة الدالة على شيء مطلوب. والصلة بين القيافة وبين القرينة أن القيافة نوع من القرائن.

وكما ميَّز العرب بين القيافة والفراسة فقالوا: التفرس يختص بإعمال الذكاء الشخصي والقدرة الذهنية الخاصة لوزن الأدلة المتعارضة وتقديرها، أما القائف يقوم بجمع الأدلة ويكشف عنها مع النظر فيها والموازنة بينها بنوع خبرة لا تتاح إلا بالتعلم والتمرس ومداومة النظر والدراسة[11] .

ومن هنا فالقيافة تعد علما من العلوم السائدة عند العرب، له قواعد وأصول وهذا ما يؤكده صاحب عمدة القاري، أن القيافة نوع من العلم، فمن تعلمه عمل به. وبما أن القيافة أمر علمي، فلا بد من العلم بمعرفة القائف له، وذلك لا يتأتى بغير التجربة. ومن طرق تجربة القائف لمعرفة كفاءته: أن يُعرض عليه ولد في نسوة، ليس فيهن أمه ثلاث مرات، ثم في نسوة هي فيهن، فإذا أصاب في الكل فهو مجرب[12] . وعدّها(القيافة) البعض أنها، "صناعة قِوامها بِقوة القوة الباصرة، وقوة القوة الخيالية الحافظة"[13].

ومن خلال ما سبق ذكره يمكن أن نقسم القيافة إلى نوعين:

أولهما: قيافة الأثر، ويعرف هذا النوع بأنه: علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في الطرق القابلة للأثر بملاحظة أقدام المارة من الناس، وأخفاف الإبل، وحوافر الدواب والتمييز بينها. حتى أن القائف يميز بين آثار قدم الشاب وقدم العجوز، وبين آثار قدم المرأة المتزوجة من غير المتزوجة، ووُجدان الضَّوالِ. وبهذا المعنى يقول سبحانه وتعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ} [المائدة: 46]. ويقول: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ} [الحديد: 27].

أما النوع الثاني فهو قيافة البشر، الذي يُعرف بأنه: علم باحث عن كيفية الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين، على المشاركة والاتحاد في النسب والولادة، وسائر أحوالهما.

ثانيا: حجية العمل بالقِيافة:

اختلف الفقهاء في إثبات النسب بالقيافة إلى رأيين، الأول: يذهب الحنفية بأن القيافة لا تعتبر وسيلة من وسائل الإثبات، لأنها تعتمد على الظن والتخمين والله سبحانه وتعالى يقول: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: 36]. والثاني: رأي الجمهور (مالك والشافعي وأحمد وابن حزم) وأنهم يأخذون بالقيافة ويعتبرونها وسيلة من وسائل الإثبات، وأجازوا الاعتماد عليها في الإثبات عند التنازع وعدم توفر الدليل الأقوى منها، أو عند تعارض الأدلة الأقوى منها.

واستدلوا بما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علي مسرورا تبرق أسارير وجهه، فقال: ألم تري أن مجززا المدلجي دخل فرأى أسامة بن زيد وزيد بن حارثة وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما فقال: "إن هذه الأقدام بعضها من بعض"[14]، وإنما سُرَّ رسول الله صلى الله وعليه وسلم بذلك، لأن الكفار كانوا يقدحون في نسب أسامة بن زيد بن حارثة، لكون أسامة أسود شديد السواد مثل القار وكان أبوه زيد أبيض مثل القطن، فشق ذلك على رسول الله صلى الله وعليه وسلم لمكانة زيد منه، فلما قال مجزز ذلك سر به رسول الله صلى الله وعليه وسلم[15] .

ومما استدلوا به أيضا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه – وقد ثبت أنه كان قوي الفراسة صادق الحدس، جَيِّد القيافة[16] – كان يليّط[17] أولاد الجاهلية بمن ادعاهم في الإسلام، فأتى رجلان إليه كلاهما يدّعي ولد امرأة، فدعا قائفا فنظر إليه القائف فقال لقد اشتركا فيه، فضربه عمر بالدُرة، ثم دعا المرأة فقال: أخبريني خبرك: فقالت كان هذا – لأحد الرجلين – يأتيها في إبل لأهلها فلا يفارقها حتى يظن أنه قد استمر بها حمل ثم ينصرف عنها، ثم خلف عليها هذا –يعني الآخر– فلا أدري من أيهما هو، فَكبّر القائف، فقال عمر للغلام فإلى أيهما شئت فانتسب، فقضى عمر بمحضر من الصحابة بالقيافة من غير إنكار من واحد منهم، فكان كالإجماع تقوى به أدلة القيافة[18] .

ولكي تكون القيافة حجة في إثبات النسب خاصة، فلا بد من شروط يجب توافرها في مدعي النسب، كالإسلام والحرية. وشروط يجب توافرها في محل القيافة وهو الولد، بأن يكون الولد مجهول النسب وأن يأتي الولد من ماء محترم لرجلين بطريق الاشتباه. وأما القائف، فيشترط فيه عدة شروط وهي:

– يشترط كونه (القائف) ذكرًا لأن القيافة حكم مستند النظر والاستدلال، فاعتبر فيه الذكورة كالقضاء.

– أن يكون عدلاً، لأن الفاسق لا يقبل قوله.

– أن يكون مسلمًا مجربًا بالإصابة، لأنه أمر علمي فلابد من العلم بعلمه له، وذلك لا يعرف بغير التجربة فيه[19] .

– أن يكون بصيرا، فلا اعتبار بقول الأعمى.

– أن يكون القائف ناطقا لأن القائف بمنزلة الحاكم، ولا سبيل لمعرفة حكمه إلا بالنطق[20] .

ثالثا: صفة أرض وادي سوف وانعكاسها على القافة:

سطح أرض سوف ينتمي إلى العرق الشرقي الكبير للصحراء الجزائرية تغطي الرمال معظم المساحة الإجمالية فتتها الماء بطول الزمن، وهي ناعمة سهلة التطاير[21] . يصف صاحب الصروف أرض سوف بأنها "عبارة عن بساط ذهبي مفروش بالرمل تزينه الأحقاف من حين لآخر"، ويضيف بأن الرمال قد أتت إلى الوادي من الجهة الجنوبية، ويُرجع سبب زحفها إلى أن أرض سوف نقص الأشجار بها، وزوال ما كان بها من غابات في القديم[22] .

والكثبان مشتق من كثب، كثبت الشيء أكثبه كثبا، إذا جمعته. وانكثب الرملُ، أي اجتمع. وكلُّ ما انصبَّ في شيء فقد انكثب فيه. ومنه سمِّي الكثيبُ من الرمل، لأنه انصبّ في مكانٍ فاجتمع فيه، والجمع الكُثْبانُ، وهي تلال الرمل[23] . وتتكون في البداية بسبب وجود عائق أمام الرياح المحملة بالرمال، مما يؤدي إلى زيادة كمية الرمال المترسبة وتكوين كثيب رملي[24] . وتتواجد بصورة كبيرة في جنوب سوف، وتختلف ارتفاعاتها حتى يصل أحدها 127م على بعد 2 كم جنوب اعميش[25] ، وفي أقصى الجنوب بين الوادي وغدامس يصل أحدها إلى 200م، وتدعى هذه الكثبان بالغرود[26] . ويمكن تمييز عدة أشكال من الكثبان الرملية أهمها:

– **الكثبان الطويلة والمستعرضة:** وهي روابي طويلة من الرمال موازية لاتجاه الرياح تفصلها أغوار (منخفضات)، وقد أطلق مصطلح سيوف في منطقة سوف على هذا النوع من الكثبان الرملية، إلا أن استعمال كلمة "سِيفْ" تطلق الآن في سوف على جميع أنواع الكثبان[27] .

– **الكثبان الهلالية:** وهي كثبان منفردة على شكل هلال رأسها في اتجاه حركة الرياح وتتكون هذه الكثبان في أرض مستوية نسبيا وعارية، مثل منطقة الشطوط شمال سوف[28] .

وتتميز الكثبان بأنها رخوة التراب – أو ما تسمى بـ "الوعس" والوعس: الرمل الذي تغيب فيه القوائم[29] – خصوصا جنوب سوف حيث يصعب تتبع آثار الهارب، أو المفقودة، والضالة بها، وخاصة في الفيافي والمناطق القفار التي تقل فيها الساكنة، ورغم ذلك تحدى القائف السوفي الطبيعة، بما أودع الله فيه من خبرة وقوة نظر أن يميز بين هذه الآثار. حتى قيل أن الله خلق لكل آفة آفة، وآفة الرمل السوافة، في حين القائف السوفي، أقوف للأثر بَالغ الْمعرفَة بِهِ وَنِهَايَة فِي تتبعه في المناطق المستوية والقابلة للقيافة، خاصة وأن الرمل في سوف يمتاز بالنقاوة والنظافة، بحيث يستطيع الإنسان أن يمشي حافيا دون أن تتسخ قدماه، ولذلك ارتبطت عادة مميزة عند

أهل سوف والبدو منهم خصوصا تتمثل في المشي بالحفاء عندما يكون الجو معتدلا[30] ، الأمر الذي ساهم في نبوغ فئة من المجتمع امتهنت القيافة وأتقنت قواعد أصولها.

رابعا: القائف السوفي قصاص الجُرَّة:

إن تعايش الفرد السوفي مع بيئته الطبيعية الصحراوية، وتنقله الدائم فوق الرمال أكسبه تجاربا وتمرسا في التعرف على كل أنواع الآثار الإنسانية والحيوانية التي تدب فوق الرمال. ويذكر صاحب الصروف أن من بين أهل الصحراء وسوف بلغ كثيرا منهم مستوى كبير في براعة تحليل آثار الأقدام، والتوصل من خلالها إلى التعرف على صاحبها، مما جعلهم خبراء ذوي اختصاص في هذا الميدان، ويطلق عليهم اسم "عرَّافي الجُرَّة"[31].

والجُرة جاءت في اللهجة السوفية فصيحة، لأنها تعني أثر الأقدام الذي يتركه الإنسان عند السير[32] ، وأصل الكلمة (الجرة) من جرر، وجرت الإبل تجر جرا: رعت وهي تسير[33] ، وفي كتاب الشوارد، جرر: يجر لغة في يجر الإزار[34] . ويقال تشاؤما في سوف "من جُرَّتِه" أي من آثاره. ويَطْلب لمن سُرق منه شيء للقائف أن يقتفي أثر الجاني، باستعمال العبارة "قُصَّ جُرته"[35] وقَصَّ جاءت في اللهجة فصيحة، وقَصَّ أثرَه، أي تتبَّعه، قال الله تعالى: {فارتدا على آثارِهما قَصَصاً}. وكذلك اقْتَصَّ أثرَه، وتَقَصَّصَ أثرَه[36] .

ويتخذ السوافة قيافة الأثر كوسيلة للإثبات وعلامة للاستدلال واتخاذ الأحكام، لأن أرضها رمل وأمرها مهمل كما يقول العوامر، خصوصا حال العرب الساكنين حول البلاد (الوادي) واعميش، فإنها لولا معرفة الأثر لكثرت السرقات، وتعطلت المنافع ولوجد كل مفسد مراده منها[37] . ولذلك حكم الشيخ خليفة بن الحسن القماري[38] ، على ابن خليل القماري حين سرق وعرف أهل الخبرة أثره، لكن ابن خليل لم يرضى بالحكم السابق، فذهب إلى شيوخ الخنقة لاستفتائهم فافتوه بعدم التعويل على خبرة القائف، لذلك نظم الشيخ قصيدة في معرفة الأثر[39] ، رد فيها عن شيوخ الخنقة الذين رفضوا حكمه في المسألة، وجاء فيها بعد السلام والرفع من شأنهم، فقال:

سلام له في الصالحات أصول يوافيه من عند السلام وصول
إلى السرج الإثبات من آل خنقة لهم في ندور الواقعات نقول
رؤوس سداد صالحون أجلة شموس رشاد ما لهن أفول
عفا الله عنكم حكمكم كيف وجهه لنجل خليل بالبراء فقولوا
ففي القلب شيء يعتريه وحيرة من القلب للأحكام حين تحول
تمسكتم بالأصل والأصل واضح وما ينكر المعلوم إلا جهول

ويُذكر الشيخ خليفة أشياخ الخنقة على معرفة عرف أهل البلد، قبل البتِّ في مثل هذه المسائل، فيقول:

ومن أدب المسؤول قبل جوابه إذا وردت يوما عليه سؤول
تعرف عُرف السائلين بأرضهم ليعرف ما يفتي به ويقول
وما أنتم منا بأعلم بالذي به الضر يدرى عندنا ويزول
فلو أُهملت آثار سُراق أرضنا فكان فساد للخراب يؤول

ثم يشبه الشيخ في منظومته أن الاستدلال بقول القائف في سوف، كشهادة أو وثيقة مكتوبة، فيقول:

ففي الأخذ بالآثار إصلاح أمرنا وفي الترك عن قصد السبيل عدول
وما الأثر إلا كالخطوط شهادة كما قالَ بعض في القياس نبيل

ولما وردت هذه القصيدة (منظومة معرفة الأثر) على إخوانه العلماء في الخنقة، تقبلوها بقبول حسن، وأجازوا الشيخ وأجابوه بقول الشيخ محمد بن المبارك الصائغي نظما تأييدا لقوله وتسليما لرأيه، فقال الشيخ الصائغي، يمدح الشيخ خليفة:

أيا من غدا للمشكلات يحاول سل إن رمت عن حبر لهن يصاول
لقد حاز قصب السبق فيها تقدما به تجتلي للقاصرين النوازل
أتانا جواب رائق ذو عذوبة يفوق لآلي الدر إذ هو واصل
ويحكم حكما عادلا في مقاله إذا بان نور الحق فالضد خامل
فإذعاننا حتم لحكم جوابه تحتم إذ طبق الشريعة حاصل

وقد اكتسب القائف السوفي خبرة في تحديد جرة الإنسان من حيث الجنس والعمر، أو الصحة والمرض، أو الحمولة من خلال تعمق أقدامه في الرمال: فأثار المرأة تكون ضعيفة فوق الرمال، بينما الشخص الكبير تكون أعمق، والشاب الذي قطع مسافات طويلة وأنهكه التعب تكون آثاره متساوية ومتقاربة، والذي به إعاقة في إحدى رجليه ولو كانت قديمة فإنه يترك آثارا بارزة تظهر من خلال ابتعاد الأصابع عن بعضها[40] ، بدينا أو ضعيف البنية، طول قامته، إن كان أعرج أو أعور.

ويمكن للقائف أن يتعرف على زمن الاعتداء: ليلا أم نهارا، قبل الزوال أو بعده[41] . ويطلق أهل سوف على شهر نوفمبر – تشرين الثاني– "شهر الجرة"، لأنه الشهر الذي تنعدم فيه الرياح، حيث تبقى آثار المارة من الإنسان والدواب ماثلة للعيان.

وقد حذق عرافي الجُرة أشكال أقدام الإنسان والتي يكتشفون من خلالها على المعتدي، بل ويحددون حتى قبيلته وعرشه اعتمادا على الأثر الذي تركه صاحب المسير، ومن أشكال القدمين نذكر: الطويلة والقصيرة، والعريضة والرقيقة، والخميصة الضامرة البطن والملساء، والمتفرجة الأصابع وملتصقتها وطويلة الأصابع وقصيرتها، وذات التجاعيد، وذات العروق البارزة، وذات الشقوق والمعتدلة، والحنفاء[42] ، والطرقاء التي في ساقها اعوجاج، وإلى غير ذلك. ويستطيع القائف السوفي أن يُميز أثر الزنوج (الوصفان) عن غيرهم، من خلال شكل أرجلهم الملساء[43] .

وتسمي العرب الدليل إذا بلغ الغاية في هذا العلم، بحيث لا يشتبه عليه شيء في المسالك المجهولة بـ "خربًا"، والمراد منه أنه يبصر في مثل خرب (ثقبها) الإبرة، بجودة حسه وقوة خياله[44]. وهو ما وصل إليه كثير من عرافي الجرة بالمنطقة، ومن هؤلاء القافة كان مرة مارًا مع صديقه فصادفتهما "جُرة" فاختلفا من صاحب هذه الجرة، فقال القائف لصاحبه: إن صاحب هذه الجرة رجل في مقتبل العمر وليس من الوادي، فرد عليه صاحبه قائلا: صاحب هذه الجرة من ورقلة، فأجابه العراف: وليس من ورقلة أيضا، فقررا أن يتتبعا الجرة، فلما وصلا إلى صاحبها وجدوه رجلا في مقتبل العمر فعلا، ومن غرداية[45] .

ومن مهام قصاص الأثر البحث على كل من يتيه في الصحراء، فتجد الدليل يحمل في رأسه خريطة كبيرة للفيافي تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتترابط فيما بينها بنقاط هي عبارة عن أحقاف وآبار قديمة ومواقع مشهورة لها معلم واضح يمكن عبرها الوصول إلى أي مكان، ويحصل كل دليل على هذه الخريطة من والده أو عمه أو شيخ يلقنه مبادئ المهنة، ويعتمد كل خبير على طريقته الخاصة في السير عبر الصحراء، ويهتدون في تحديد المواقع على ما يقرب من ثلاثين نجما في السماء، كل نجم له موقع في كل فصل من فصول السنة[46] .

وهناك علامات يستعين بها القائف لتقفي الأثر، نوجزها في الآتي:

- في حالة المشي يظهر أثر القدم كلها، وفي حالة الجري يظهر أثار الأصابع إذا كانت القدم حافية.
- أثر قدم المرأة أصغر من قدم الرجل.
- الرجل الأعرج إحدى قدميه تكون ثابتة الأثر بخلاف الأخرى.
- خطوة الأعمى قصيرة.

وقد اعتمدت الإدارة الفرنسية على رأي أصحاب القيافة للاستدلال عن المعتدين، ومما يروى أن ضابطا فرنسيا عين رئيسا للإدارة بالوادي أراد أن يتأكد من صحة هذا العمل العُرفي ليعتمده بدوره في أحكامه، ففي ذات ليلة خلع حذاءه وذهب مستترا إلى أحد الغيطان القريبة وقطع عرجون تمر من نخلة صغيرة ثم عاد إلى منزله،

وفي صباح الغد ذهب صاحب الغوط إلى الإدارة ليخبرها بالاعتداء على تمره حتى تتخذ الإجراءات للكشف عن المعتدي، فأرسل الضابط من يحضر الخبير(القائف) كعادة أهل البلد في مثل هذا الحادث، ولما حلَّل الخبير الآثار توصل نهائيا وبلا تردد إلى اكتشاف صاحبها الذي هو الضابط، فأُعجب الضابط بمعرفة القائف واتخذه من ذلك اليوم خبيرا رسميا في هذا الميدان[47] . وقد سُئِل أحد عرافِي الجرة عن الأدلة التي اعتمدها في الحكم بأن سرقة التمور من غوط فلان ليلة البارحة لا نهار أمس، فكان بعض ما ذكره من جوابه:

– كان على جرة السارق آثار مشي الفئران، وهي غالبا لا تخرج من جحورها وتنتقل بحرية إلا في الليل.

– على الجرة آثار الندى، والندى لا ينزل إلا ليلا.

– كانت الجرة واضحة المعالم سليمة، لم تصادفها ريح نهار الأمس التي لم تهب سوى أول الليل الماضي[48] .

واستعان الجيش الفرنسي أيضا على عرافي الجرة من الخونة والمتعاملين معها أثناء الثورة التحريرية المظفرة من أجل تقفي آثار المجاهدين والقبض عليهم. ونورد هنا حدثا على سبيل المثال لا الحصر، فبعد انتهاء اليوم الأول من معركة الدبيديبي[49] يوم 1956/01/15م بجهة بلدة الرباح وأثناء منتصف الليل تفرق المجاهدون، واتجهت مجموعة منهم بقيادة البشير مزيان نحو هود سلطان بحوز تغزوت، ولم يهدأ للمستعمر بال بعد معركة 15 جانفي بل بقي يلاحق أثر المجاهدين بالتعاون مع القومية وبدعم من عرافي الجرة تم اكتشافهم فعلا، واستمرت المناوشات في الطريق بين الثوار والجيش الفرنسي وانتهت الملاحقة بالملحمة الشهيرة التي تدعى بـ "معركة هود سلطان" 16–1956/01/17م، ومن نتائجها استشهاد جميع الجاهدين، ولم ينجو إلا واحدا فقط وكانت النتائج وخيمة على العدو الفرنسي بأن لقي أكثر من مائة شخص حتفهم) [50]. وكما اعتمدت فرنسا في ملاحقة المجاهدين على التخوم التونسية جهة وادي سوف على عرافي الجرة، وتنظيم جيشا يسير على الأقدام ويتتبع الثوار واستغنوا على المهاري والآليات[51] .

وتمرس القائف السوفي أيضا في معرفة آثار الحيوانات والدواب الصحراوية وإن آثار أخفاف الإبل فوق الأرض يدل عليها قبل رؤيتها وعلى عدد جمال العير ومن أين هي آتية وماذا تحمل ومتى مرت من هذا المكان؟ وكانوا يعرفون ذلك من خلال عدة قرائن منها: الجمل في الصيف لا يتنقل ولا يأكل إلا ليلا، وفي الشتاء فإن أوقات راحته محددة بدقة، فهو يستريح لمدة ساعة عند مطلع الفجر، وساعتين أو ثلاث خلال اليوم وفي المساء عند غسق الليل. وكما يتعرف القائف على وقت استراحته ففي النهار يستريح الجمل وقت الظهيرة مولي رأسه إلى الشمس، ويكون في مكان مرتفع، أما في الليل يكون في مكان منخفض معاكس لاتجاه الريح، إضافة إلى استدلاله بالبعر الجمل فإن وجد بعر قليلا فهذا يدل على أن استراحته في وقت الظهيرة، أما عن كثرة البعر فهو في الليل[52] .

وكما استطاع القائف السوفي أن يفرق بين أثر جمال المنطقة من آثار جمال غيرها من الدول المجاورة، من خلال جرتها[53] ، ويقول بعضهم نعرف جمال أهل الظهرة (الشمال) من خلال أخفافها الملساء، لطبيعة أرضهم الحجرية[54] ، وقد روي أن رجلين من القيّافة اختلفا في أثر بعير فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، فإذا بعير واقف فاستدار به، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فنظر فإذا هو خنثى، وقد أصابا جميعا[55] .

وروي عن لآخر يدعى: "علي عوين" لما هاجر إلى تونس اتهمه أحد سكانها بأن جماله أكلت حرثه، وكان لهذا الأخير أيضًا جمال فطلب "علي عوين" من صاحب الحرث أن يرى الجرة فتعرف عليها، وأخبره بأن الذي أكل الحرث هي إحدى نوقه، فلم يصدقه فطلب "علي" صاحب الحرث بجمع جمالهما في سطر واحد ماعدا الناقة التي أشار إليها، فتطلّع صاحب الحرث وعلي عوين على أفواه كل الجمال، فلم يجدوا أي أثر فيها، فلما رأوا فم الناقة وجدوا بذور الدلاع فيه، فتبين لهم أن الناقة هي من أكلت الحرث. فأندهش صاحب الحرث لذلك، فطلب من علي تفسير تعرفه على الجرة، فأجابه بأن أقدام جمالنا مشققة، وهذا يرجع إلى طبيعة منطقة سوف، أما أقدام جمالك فهي ملساء[56] .

كما يمكن للقائف أن يستدل بالبعر على أصل الجمل وساعة توقفه بالمكان والوقت الذي مضى عليه منذ شربه للماء في آخر بئر مر بها، وهل تناول العلف في آخر مرحلة توقف بها، ومن أي منطقة قدم[57] . أما مقدار ما يحمله الجمل فيعرف بواسطة أبعاد أخفافه فوق الأرض، والعرّاف الماهر له القدرة على التمييز بين الذكر والأنثى ولون الجمل[58] .

ونظرا لأهمية وظيفة قصاص الأثر كدليل في مواجهة الخارجين عن القانون بالكشف على الجناة، وعصابات التهريب التي تجوب صحرائنا الشاسعة وإنقاص التائهين في الصحراء، فقد أحصت وزارة السياحة في عام 1998م وجود 7000 دليل صحراوي في ولايات الجنوب إليزي، وتمنراست، وغرداية، ووادي سوف، وورقلة، وأدرار، وبشار، وتندوف.

والسؤال المطروح، ما أهمية عرافي الجرة حاليا في ظل التقدم التكنولوجي، والأقمار الصناعية، وأجهزة الرصد المتطورة؟ وللإجابة نقول أنه، لا يمكن الاستغناء عن قصاصي الأثر لعدة أسباب، أهمها أن قصاص الأثر يمكنه تقديم معلومات أهم من أي جهاز فضائي لتحديد المواقع. فبإمكانه تقصي الأثر في الدروب والمسالك الوعرة والنائية، ويستطيع كشف آثار تحركات الأشخاص والسيارات في الصحراء، لهذا فإن عرّاف الجُرة يعد "مخبر أدلة جنائية متنقل"[59]، ولهذا أولت الدول الكبرى عناية بمهنة تفقي الأثر ودفعت الأكاديميات

العسكرية في الولايات المتحدة، وأوروبا والكيان الإسرائيلي، إلى تدريس ضباطها الجدد أصول فن متابعة أثر الأشخاص، والعربات في الصحراء على طريقة العرب والطوارق في الصحراء الكبرى. وقد شكل جيش الكيان الإسرائيلي الغاصب بالتعاون مع الجيش الأردني وحدة قصاصي الأثر. كما شكل الجيش الفرنسي أيضا وحدة قصاصي الأثر تلقت تدريبها في بعض الدول الإفريقية، وهذا لدواعي أمنية واستخبراتية وبدعوى محاربة الجريمة العابرة للقارات[60] .

خامسا: قيافة البشر عند السوافة:

تعد قيافة البشر النوع الثاني من القيافة، وقد عرفها الرازي بقوله: " فهي صناعة يستدل بها على معرفة الإنسان ينظر صاحبها في بشرات الناس وجلودهم وما يتبع ذلك من هيئات الأعضاء وخصوصا الأقدام، فيستدل بتلك الأحوال على حصول النسب سواء من خلال حصول المشابهة الظاهرة بين الأولاد والوالدين، وقد تقع في أمور خفية لا يدركها إلا أرباب الكمال والتمام في القوة الباصرة وفي القوة الحافظة[61] .

وهذا النوع من القيافة ينتشر في أوساط المجتمع السوفي، ويُعرف بـ "لِهْدَادْ"، وتعني في اللهجة السوفية قِيافة النسب، أو إلحاق الولد بأبيه، حيث أن عرَّاف النسب من خلال قسمات الوجه والهيئة، وشكل الأعضاء، وحتى نبرة الصوت، ونظرات العين، وتصرفات الشخص، علامات تمكن القائف من إلحاق الولد لوالده، وإن لم يكن يَعْرِف الوالد فلقبيلته وعرشه[62] . وحدد العارفين بالقيافة، المعتبر في التشابه من أربعة أوجه:

أحدها: تخطيط الأعضاء وأشكال الصورة.

و**الثاني:** في الألوان والشعر.

و**الثالث:** في الحركات والأفعال.

و**الرابع:** في الكلام، والصوت، والحدة، والأناة، ولئن جاز أن تختلف هذه الأربعة في الآباء والأبناء في الظاهر الجلي، فلا بد أن يكون بينهما في الباطن تشابه خفي، ولئن لم يكن في جميعها لغلبة التشابه بالأمهات، فلا بد أن يكون في بعضها لأن المولود من أبيض، وأسود، لا يكون أبيض محضا، ولا أسود محضا فيكون فيه من البياض، ما يقارب الأبيض، ومن السواد ما يقارب بالسواد[63] .

ويشترط في القائف – عند من يرى العمل بقوله في ثبوت النسب – أن يكون مجربا في الإصابة، للحكمة القائلة: "لا حكيم إلا ذو تجربة"، ولأن القيافة أمر علمي فلا بد من العلم بمعرفة القائف له، وذلك لا يُعرف بغير التجربة. وقد ذكَّر الشيخ خليفة في قصيدته السالفة الذكر معارضيه، بأنه لا دعوى للغرابة فيما يخص العمل

بعرافي الجرة، ويؤكد على الأخذ بقول القائف في النسب أيضا، ثم يعاتب مخالفيه لعدم معرفتهم عرف السائلين بأرضهم، فيقول[64] :

وأغرب منه ما تحراه قائف من الشبه للمولود أين يميل
وفي ولدي عفراء لما تنازعاجهاز أبي جهل وهو جديل
بأثر طعان السيف كان نبينا قضى أنه للسيدين قتيل
وهب أنكم خالفتم ما بدا لناولم يبد منكم للصواب نكول
فهلا حكمتم بالذي هو واجب على من تصدى بالعراء يصول

ويؤكد الشيخ على وجوب معاقبة الجاني، فيقول:

من الضرب والتنكيل والسجن طائلا لتختبر المكتوم منه عقول

وفي المنظومة يُدلل الشيخ على شرعية قيافة النسب، بالاستناد إلى حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالأثر في السيف في قضية ابني عفراء، اللذان اشتركا في قتل أبو جهل يوم بدر، كما جاء في صحيح مسلم، "فعن عبد الرحمن بن عوف، أنه قال: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فغمزني أحدهما، فقال: يا عمُّ، هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرت أنه يَسبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فتعجبت لذلك. فغمزني الآخر، فقال: مثلها، قال: فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلت، فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «كلاكما قتله»"[65].

وقد علق صاحب الصروف عن حُكم سيدي خليفة المذكور بقوله: وله الحق في جميع ما قال، فَربُّ الدار أدرى بما فيها، وهذا بعد أن عدد خصال الشيخ بأنه صاحب باع طويل في الفقه لا يجارى في زمانه وخصوصا في جمع النظائر والأشباه وكان خالص العقل، محرر النقل، مسلم لما يدعيه من غير مطالبة بحجة لما عرف من ورعه، وكان صاحب اعتقاد في الفقراء يخدمهم بنفسه ويبذل لهم ما يجده[66] .

ونبغ كثير من السوافة في فن القيافة ومعرفة انتماء الأشخاص بمجرد التفرس في وجوههم أو معرفة القرابة بين شخص وآخر بمجرد ملاحظة وجوههم وبعض أعضائهم على غرار أسلافهم من العرب الذين

استطاع بعضهم تقفي حتى حِرفة الشخص بمجرد النظر إليه، فقد حُكي أن الإمام الشافعي، ومحمد بن الحسن، رأيا رجلا فقال محمد: أنه نجار، وقال الشافعي: إنه حداد فسألاه عن صنعته، فقال: كنت حدادا والآن نجار.

وتعتبر زراعة النخيل عصب الحياة عند سكان الصحراء[67] ، وبوجودها أصبحت المناطق الصحراوية صالحة للعيش والاستقرار[68] ، ونظرا لصعوبة أرض سوف ذات الرمال المتحركة كما أسلفنا، وعدم وجود المياه الجارية وندرة الأمطار، لكن الله تعالى وهب هذه المنطقة كمية هائلة من المياه الجوفية، استغلها الفرد السوفي بابتكار ما يعرف بالغوط، وهو ذاك المكان المنخفض الذي يزرع فيه النخيل قريبا من الماء. ونظرا لشظف العيش، فإن الكثير من الفلاحين وخاصة في القرن الماضي يعتمدون في اقتصادهم المحلي على النخلة وإلى جانبها ما يسمى بـ"الحرث"، وهي الزراعة المعاشية، من بصل، وثوم، ويقطين... وبعض الفواكه الفصلية وخاصة منها، البطيخ، والبطيخ الأحمر (الدِّلاع)، والأصفر (المرحوم)، وهي فاكهة تكثر في فصل القرِّ، حيث يستغل بعض الأطفال القيلولة وخلو "الهود" من أصحابه لسرقة البطيخ.

وقد كان السوافة يستعينون بالقافة لتحديد هوية السارق، فيُروى عن أحد أصحاب هذه الصناعة(القيافة)، وهو "الحاج محمد بن بالقاسم صحراوي"[69]، أنه سُرق من غوطه بالجر الجنوبي لبلدة الرباح بطيخا أحمرا، فاقتفى الحاج مُحمد أثر السُّراق إلى أن عثر على قشور الدلاع في المكان الذي أكلوا فيه، وبعد أن تفحص آثار النَّتش ردَّ الأطفال إلى عائلتهم، وقال: أنهم أبناء فلان ابن فلان، وذلك من خلال آثار أسنانهم على القشور، وقد بلغ عين الصواب، بعد أن تم التحقق من ذلك باستنطاق الأطفال.

خاتمة:

يمكن أن نجمل ما توصلنا إليه من استنتاجات حول هذا الموضوع، في النقاط الآتية:

- ذهب جمهور الفقهاء المالكية والحنابلة والشافعية إلى مشروعية العمل بالقيافة، واعتبارها وسيلة للإثبات وعلامة للاستدلال، وشبَّه الفقيه السوفي الشيخ خليفة، بأن شهادة عرّاف الأثر إلا كخطوطِ وثيقة الإثبات، وأجاز العمل بها في الأحكام.
- علم القيافة اختص به العرب وندر في غيرهم لأن هذا العلم لا يحصل إلا بالتجارب والمزاولة عليه مُددا طوال، ولم يقع في هذا العلم تصنيف، وإنما هو متوارث خلفا عن سلف.

- تعتبر صناعة القيافة شاهداً على عبقرية ابن الصحراء الذي تمثل في بيئته القاسية فذلل مصاعبها وحجّم مخاطرها، فضلاً عن أن هذا العلم يُعد من أقدم العلوم الشعبية الإنسانية، ومن أكثر مهارات الإنسان الأنثروبولوجية رُقياً وتميّزاً.

- القائف يتميز بملكة ذهنية ممتازة، وذكاء فطري، وذاكرة حادة، تساعده على تذكر الآثار والوجوه، وتدله على معرفة السارق من القاتل، وإلى تحديد نسب الشخص إلى عائلته وهذا كله بِقوة القوة الباصرة، وقوة القوة الخيالية الحافظة، واللتان لا يحصل هذا العلم إلا بهما.

- لقد تفاعل الفرد السوفي والصحراوي عامة مع بيئته وتمكن من أن يتكيف مع حيواناتها ومناخها ونباتاتها، وبرع بعضهم في إتقان مهارة قص الأثر حيث كانوا يتتبعون بنجاح آثار الإنسان، والحيوانات والوحوش، التي تغزو أغنامهم ومواشيهم وغيطانهم وما ساعدهم على إتقان هذه المهارة نعومة الأراضي الرملية، وظهور الآثار الناتجة عن أي تحرك ضمن هذه البقعة.

- اعتراف السلطات الاستعمارية الفرنسية بحذاقة القافة من أهل الصحراء عموما والسوافة خصوصا في تتبع بصمات الأقدام وتمييزها عن بعضها ولو تزاحمت وتراكمت لذلك استغلت بعضهم من ضعاف النفوس، الذين باعوا وطنهم بعرض من الدنيا قليل في تقفي آثار المجاهدين، ومطاردتهم في الصحاري والقفار.

الهوامش:

1- للمزيد حول مفهوم القيافة ينظر: ابن الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، ج. 9، تح. محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م، ص 249؛ محمود بن عمرو الزمخشري، أساس البلاغة، ج. 1، تح، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998 م، ص 690؛ ابن منظور، لسان العرب، ج. 9، دار صادر، بيروت، ط. 3، 1414 هـ، ص 293؛ مجموعة من العلماء، الموسوعة الفقهية الكويتية، ج. 10، دار السلاسل، الكويت، ط. 2، 1427 هـ، ص 160.

2- محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، ط. 4، 1415هـ-1994، ص 533.

3- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج. 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان 1995، ص399.

4- عبد العزيز محمد عزام، النظام القضائي في الإسلام، ج. 2، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1988، ص 152.

5- توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، سوريا، ط. 2، 2001م، ص 278.

6- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7- الفرق: موضع المفرق من الرأس في الشعر. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج. 5، تح. مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال (د. ت) ، ص 147.

8- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج. 3، دار الكتب العلمية، بيروت 1404 هـ، ص 278.

9- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج. 12، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. س)، ص 247، نفسه أيضا، ج. 13، ص 74.

10- مجموعة من العلماء، الموسوعة الفقهية الكويتية، ج. 34، ص 93.

11- المرجع نفسه، ص 94.

12- المرجع نفسه، ج. 10، ص 160.

13- محمد فخر الدين الرازي، الفراسة، تح. تع. مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة 1987، ص 31.

14- مسلم بن الحجاج النيسابوري، المسند الصحيح، ج. 2، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ص. 1081، محمد بن سعد البصري، الطبقات الكبرى، ج. 4، تح، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410 هـ/1990 م، ص 74.

15- عبد العزيز محمد عزام، المرجع السابق، ص ص 125-126..

16- عبد السلام بن محسن آل عيسى، دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية رضي الله عنه، ج. 2، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 2002م، ص 1148.

17- كان عمر رضي الله عنه يليّط أولاد الجاهلية بآبائهم: أي يلحقهم بهم. أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، أساس البلاغة، ج. 2، ص 189.

18- محمد بن إسماعيل عز الدين الأمير، سبل السلام، ج. 2، دار الحديث، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص595.

19- مجموعة من العلماء، الموسوعة الفقهية الكويتية، ج. 34، ص 100.

20- عبد العزيز محمد عزام، المرجع السابق، ص 134.

21- محمد بن عمارة، العادات الاجتماعية في البيئة الصحراوية – وادي سوف نموذجا -، منشورات مطبعة اقرأ، قسنطينة، الجزائر 2010، ص 20.

22- إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع. الجيلاني العوامر، الدار التونسية للنشر، تونس، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص 40.

23- إسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج. 1، تح. أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 4، 1407 هـ/1987 م، ص 209.

24- حسن أبو سمور، علي غانم، المدخل إلى علم الجغرافية الطبيعية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1998، ص ص 138-139.

25- اعميش: تطلق في سوف على المنطقة التي تقع جنوب مدينة الوادي العاصمة، وتضم: الرباح، والبياضة، والنخلة، والعقلة.

26- ANDRE VOISIN , LE SOUF MONOGRAPHIE, ELWALID, ELOUED 2004, P.12

27- حليس يوسف، الموسوعة النباتية لمنطقة سوف، مطبعة الوليد بالوادي، الجزائر 2007، ص 25.

28- المرجع نفسه، ص25.

29- عبد الرحمن بن تميم الفراهيدي، كتاب العين، ج. 2، تح. مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بغداد، 1985، ص 203.

30- محمد بن عمارة، المرجع السابق، ص 21.

31- إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 143.

32- ثريا التيجاني، دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري –وادي سوف نموذجا–، دار هومة للنشر، الجزائر، 1998 ص 177.

33- بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، ج. 7، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ/2000 م، ص. 198؛ ابن منظور، لسان العرب، ج. 4، ص 128.

34- الحسن بن محمد الصغاني، الشوارد، تح. وتق. مصطفى حجازي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1403هـ/1983، ص 40.

35- محمد بن أحمد، "قصاصو الأثر.."، جريدة الخبر الجزائرية، ع. 6583، الثلاثاء 2011/01/03م الموافق لـ 09 صفر 1433هـ، ص 9.

36- إسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج. 3، ص 1051.

37- إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 143.

38- الشيخ خليفة بن حسن القماري: ولد بقمار عام 1123هـ/1711م، وتعلم بها، ورحل بلاد الزاب ونهل العلم من علماء سيدي ناجي. وهو أشهر من نظم خليل، وقد سمى نظمه المذكور "جواهر الإكليل في نظم مختصر الشيخ خليل"؛ وقد امتاز بسلاسته ودقته، عدد أبياته 9817 فأبيات الجزء الواحد حوالي خمسمائة ألف بيت، ويعرف عنه أنه اعتنى بالفقه المالكي عناية خاصة، فله كتاب سماه "الكنش" أو الكناش جمع فيه مسائل فقهية هامة على شاكلة النوازل والفتاوى، وقد قدره من رآه بـ 300 صفحة من الحجم الكبير، وهو أول كتاب يطبع من مؤلفات أهل سوف. توفي عليه رحمة الله بقمار عن عمر ناهز 84 عاما سنة 1207هـ/1792م. للمزيد ينظر: محمد الطاهر التليلي، إتحاف القارئ بحياة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري، تح. تع. أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر 2011، ص ص. 53–56؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2، دار البصائر، الجزائر2007، ص ص. 77–78؛ علي غنابزية، دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر، مطبعة مزوار، الوادي 2011، ص ص 61–62.

39- لمزيد الاطلاع حول منظومة الأثر. ينظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص. 144؛ محمد الطاهر التليلي، المرجع السابق، ص ص 53–56.

40- علي غنابزية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر 2001، ص 139.

41- هامش رقم 05، كتاب الصروف، المرجع السابق، ص 143.

42- الحنفاء: من الحنف، وحنف الرجل يحنف حنفا فَهُوَ أحنف وَالْمَرْأَة حنفَاء، وهو انقلاب الْقدَم حَتَّى يصير ظهرهَا بَطنهَا. وَقَالَ الْأَصْمَعِي: الحنف فِي الْقَدَمَيْنِ أَن تميل كل وَاحِدَة مِنْهُمَا بإبهامها على صاحبتها. ينظر: ابن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، ج. 1، تح. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م، ص 556.

43- لقاء مع بشير بن عبد القادر عثماني المصعبي القرفاني، بمنزله الكائن بحي علي دربال، بلدية الرباح، في التاريخ 2013/04/01م، على الساعة 11سا و30د.

44- محمد فخر الدين الرازي، المصدر السابق، ص 32.

45- روضة نصرات وآخرون، بلدة الرباح، الحياة الاجتماعية والثقافية في الفترة(1854–1962)، بحث غير منشور لدينا نسخة منه، ص 98.

46- محمد بن أحمد، المرجع السابق، ص 9.

47- هامش رقم 05، كتاب الصروف، المرجع السابق، ص143.

48- المرجع نفس، ص143.

49- قرية فلاحيه تقع جنوب مدينة الوادي بنحو 24 كم، تابعة إداريا إلى بلدية الرباح.

50- عمار عوادي، الحركة الوطنية الجزائرية والنشاط الثوري بوادي سوف بين 1954-1957، مطبعة سخري، الوادي 2011، (د.ص)؛ عزام عوادي، "معركة هود سلطان"، مداخلة ألقيت بمناسبة ذكرى توقيف القتال 19 مارس، قاعة المحاضرات، بلدية كوينين، في التاريخ: 2013/03/19.

51- حمد الهادي بوغزالة، مسيرة شاهد من الثورة، مذكرات المجاهد حمد الهادي بوغزالة، مطبعة سخري، الوادي، ص 70 وما بعدها.

52- روضة نصرات وآخرون، المرجع السابق، ص98.

53- الجباري عثماني، "القيافة عند السوافة جذور وبراعة"، مجلة المنار العربي، ع. 27، مارس/ أفريل 2009، الوادي، ص26.

54- لقاء مع بشير بن عبد القادر عثماني المصعبي القرفاني، بمنزله الكائن بحي علي دربال، بلدية الرباح، في التاريخ، 2013/04/01م، على الساعة 11سا و30د.

55- محمد بن الحسن بهاء الدين البغدادي، التذكرة الحمدونية، ج. 8، دار صادر، بيروت، 1417 هـ، ص21.

56- روضة نصرات وآخرون، المرجع السابق، ص99.

57- علي غنابزية، المرجع السابق، ص139.

58- AHMED NADJAH , LE SOUF OASIS , EDITION LA MAISON LIBRE , ALGER1971 , P.138.

59- محمد بن أحمد، المرجع السابق، ص 9.

60- نفس المرجع، ص9.

61- محمد فخر الدين الرازي، المصدر السابق، ص ص 31-32.

62- الجباري عثماني، المرجع السابق، ص 26.

63- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الحاوي الكبير، تح. علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ص387-391.

64- إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 144.

65- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، ج. 3، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت)، ص 1372.

66- إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 145، محمد الطاهر التليلي، المرجع السابق، ص 55.

67- الجباري عثماني، مدينة الوادي. الحياة الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجلات المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن 19م، ماجستير في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2009، ص ص 100-104.

68- حليس يوسف، المرجع السابق، ص 55.

69- هو من مواليد بلدة الرباح، حي علي دربال، ينتمي إلى عرش السوامش، أحد المشهود لهم بالحذاقة في قص الأثر، ومعرفة لهداد.